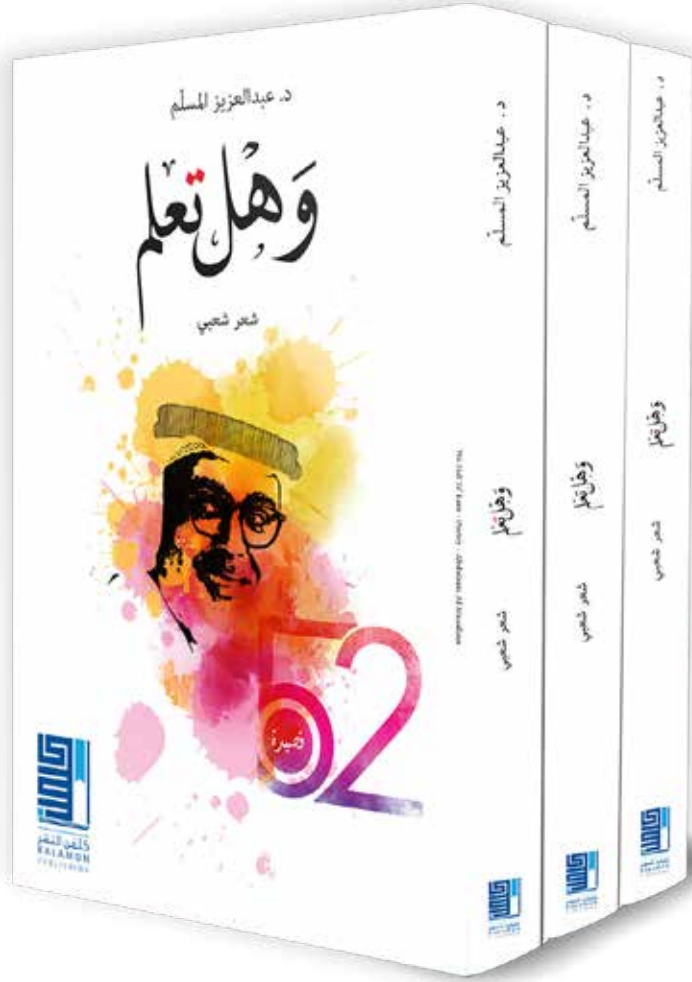




د. رؤى قداح
أكاديمية وناقدة - سورية

حين يحتفى الشاعر بالزمن قراءة في المجموعة الشعرية «وَهْلُ تَعْلَم» للدكتور عبد العزيز المسلم

عينان تلتفتان بثقة إلى ذاك الوراق المخبوء خلف غلالاتِ الذاكرة الشفيفة، ونصفُ
ابتسامةٍ تخاتلُ متأقلمها، وتنشي بما أثرتِ العينُ كتمانها. وكى يكتمل مهرجانُ الشاعر
يزروقُ رماذ الزمن وبياضه الحياضي الجارح بألوان شارقة، كأنّ طفلاً دلّقه لاهياً
على صورته: أصفر... أحمر... ورديّ، ويكفُ الزمنُ عن لهائه على الثانية والخمسين،
أو على رقم سبعة مشبّعاً بدلالاته كلّها. بياضٌ يغلف مساحاتِ الشجن، ونقطةٌ من
أول السطر؛ الشاعرُ غداً حرّاً، وتابَ عن تكبيل زمن الوهم بالإحصاء كالأطفال؛ فلا عدّ
بعد هذا العيد.



الحدود فيها، وقد حدّدها بالأشهر الخواتم من عام 2005.

تنتمي قصائد الكتاب إلى الشعر الشعبي، وهو الفن الذي استبدّ بوجوده د. المسلم وأغراه بارتداد آفاقه مذ كان في الثالثة عشرة من عمره، فالتزم مجالس كبار الشعراء الشعبيين، ومنهم الشاعر «طناف» الذي تعلّم منه «لغات الغطو»؛ وهي لغات شعريّة سريّة؛ منها: «الدرسعيّ، والأبجديّ، والريحانيّ». وصار الشعر الشعبي رفيق حياته، وصوت وجدانه، وحديقة روحه، ومعبره إلى التراث الشعبي الذي غدا رافعاً للواء إحيائه وحمايته، والعناية به، متجاوزاً بذلك أسوار المحليّة إلى الفضاءات العربيّة والعالميّة.

يُوصف الشعر الشعبي بأنّه صورة المكان بأبعاده الثقافيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة والوجدانيّة، والخازن لتاريخ الجماعة البشريّة والمعبر عن وجدانها ومنظوماتها القيميّة والأخلاقيّة والإنسانيّة وأعرافها الاجتماعيّة؛ ولأنّ المجتمع الإماراتيّ مجتمع قبليّ، فقد تجذّرت قيم القبيلة والأسرة في شعره الشعبيّ في شقّيه؛ البدويّ، والحضريّ المُجدّد المنفتح على الثقافات. ونستطيع القول إنّ شعر د. المسلم يمثّل سمات الشعر الشعبيّ الحضريّ تمثيلاً وفيّاً؛ فعلى مستوى اللغة تبدو لغته حضريّة وظّف فيها بعض المفردات الأجنبيّة التي كانت نتاجاً حتمياً لعيشه في بيئة حضريّة تتسم بالانفتاح الثقافي، ولإتقانه لغات أخرى، وارتحاله الدائم إلى آفاق جغرافيّة رحبة اختبر فيها ثقافاتٍ شتّى، ما خلّف أثراً جليّاً في لغته وفي صوره، ومثاله ومضته التي تحمل عنوان «سفر»، وقصائده المعنونة بـ «جميل الوصف، باريس، آمال». أما صوره فطغى عليها الطابع الذاتيّ الوجدانيّ النزاع إلى الطبيعة والتأمل، وإلى المزج بين موروثه المحليّ القبليّ والفرديّ المعيش والإنسانيّ العام.

بدأ د. المسلم مختاراته بومضة تغنّى فيها باسم والدته «مريم»، وختمها بقصيدة عن «الشارقة»؛

هكذا اختار الدكتور عبد العزيز المسلم أن يستدعي الناظر إلى غلاف كتابه المعنون بـ «وهل تعلم؟» ليورطه في مشاركته طقوس الاحتفال بعيدة الثاني والخمسين. أئمّة شاعرٌ يحتفي بالزمن، ويضحك لمن قهرَ إذ عبرَ؟ هذا ما جاد به الغلاف، وأما الجوابُ الفصل فكامن في فؤاد الشاعر وبوجه؛ وفيما تجلّى في ظاهر نصّه، وما احتجّب خلف الرّموز والصور والإشارات.

صدر كتاب «وهل تعلم؟» عام 2020 عن دار «كلمن» في الشارقة، وفيه جمع د. المسلم اثنتين وخمسين قصيدة انتقاها من نتاجه الشعريّ على مدى سنوات عمره، ليهديها لكلّ من أحبّه في عيد ميلاده الثاني والخمسين؛ معلناً ذلك في الإهداء الذي مهّد به لمختاراته، وأوضح في برنامج «حكايتي» الذي عرض على «قناة الشارقة» أنّ اختياره هذا الرقم مرتبط بأولاده السبعة؛ ما يجلو معنى كامناً للحب لديه، يقترن بامتداده الجسديّ عبر الزمن؛ فهم الدائرة الأثيرة للحب، وهم القاهرُ الممكنُ لسطوة الزمن، والمتصافُر مع الشعر الذي يتغيّأ المبدع من خلاله تحقيق خلوده اللاجسديّ المشتبه.

ورّع د. المسلم قصائده المختارة على خمس باقات شعريّة، ضمّت كلّ باقة من الباقات الأربع الأولى عشر قصائد، وضمت الباقية الخامسة اثنتي عشرة قصيدة، وقدم لكلّ باقة بومضة شعريّة قوافها بيتان أو ثلاثة أبيات، وكانت عناواناتها على التوالي: «أقبي، بعض، سفر، البعض، صباح الخير». وقد يلتبس الأمر على المتلقي فيظنّ أنّ عنوان البومضة التي يمهّد بها للباقة الشعريّة ناظمٌ لقصائدها ومتعالقٌ معها موضوعاتياً، ولكن القراءة الفاحصة للقصائد تثبت أنّ د. المسلم لم يلتزم معياراً في ترتيبها؛ بمعنى أنّه لم يرتبها ترتيباً موضوعاتياً فيكون الغزل في باقة، والفخر في أخرى، على سبيل المثال. ولم يرتبها ترتيباً زمنياً من الأقدم إلى الأحدث؛ فزمن الإبداع لم يحضر إلا في قصائد قليلة تؤرّخ لعلاقته الوجدانيّة بأرمينيا ومترفات

وهذا الترتيب القصديّ جعل مختاراته أشبه بدائرة حُبِّيَّة تتأسّس على مركزيّة الأوليّ الحميم؛ متمثلاً في الأم مهد الحب، ومنبعه، ومفتاحه، ومسكن الجسد والروح والقلب، وفي المدينة الأم التي يبدو الشاعر مشدوداً إليها مهما تناعت به رياح شغف ارتياد عوالم الآخر القصيّة. وضمن دائرته الحُبِّيَّة هذه حشد قصائده التي تكثف صورة ذاته، وتجلو نوازغَه وقيمَه وحكمته وخلاصة تجاربه الحياتيّة.

وبالعودة إلى موضوعات قصائده المختارة نجدها محصورة في أربعة؛ أقلّها من حيث العدد قصائد المكان، وهي ثلاث، أولاه: «باريس»، يصف فيها صخبها ونساءها وألوانها ونهرها الذي يختزل تاريخها. وثانيها: عن «دبي» مهوى القلب، ودار المحبّين التي تردّ الشيخ إلى صباه بما خفي فيها من سرٍّ لا يُدرَكُ كنهه. وثالثها: عن «الشارقة» موطن النور والعلم والثقافة، وأرض السعد والمجد، ومركب الحضارة الموغلة في الأمالة. وتليها قصائد الأسرة والصحب والفخر والنقد الاجتماعيّ، وهي ستّ، أبرزها قصيدتان نظمهما عن والده، وعنواناهما: «سيدي»، و«يا بوي»، وقصيدة عن الشاعر «راشد شرار» بعنوان: «الوقت ضاق». وفي هذه القصائد إحياء للقيم القبليّة التي تمجّد الروابط الأسريّة والأخلاق النازمة للمجتمع وللعلاقات فيه؛ من خشية لله، ونبيل، وكرم، ووفاء، وتواضع، وتسامح، وبساطة، ورحمة، ونزاهة، ونبذ للزيف والتزلف والتكلف. وتليها قصائد وجدانيّة بلغ عددها اثنتي عشرة قصيدة، وهي نتاج نزوع الشاعر إلى التوّد والغياب عميقاً في عوالم الذات، وتأمل أحوالها، والتفكّر في شؤون الدنيا واختلال مقاييسها، وهو ما ولّد لديه شعوراً بالغبن والمرارة بدا واضحاً في قصائده المعنونة بـ«مسرح الدنيا، ليش، همس». وفي قصيدتين أخريين عنواناهما: «طاح المطر»، و«الفراشة»، نراه متأملاً عناصر الطبيعة، جانحاً إلى أنسنتها وإسباغٍ بعدٍ فلسفي عليها، وتغليفيها بمشاعر

الوجد والحنين. وتبدو قصائده: «زهو الشباب، بقايا الليل، لمح الخواطر، علاء الدين» التي يتأمل فيها ذاته، نضاجة بالحزن الشفيف والأسى العميق، ويكفي أن نذكر هنا بعض ما زحرت به قصيدة «علاء الدين» من مفردات الوجد لنذكرك مبلغ تجرّ هذين الشعورين في وجدانه؛ ومنها: «جراحي، الهمّ، متاهاتي، تعذبني، هموم، تحرق، تنزف، تعبت، أحزاني، الألم، الضيم، الغم، تعاندني، الزيف، حرّات الشقا، جراحي». وتنفرد قصيدة «أنا غير» بوصف حالة مغايرة تتوهج فيها ذات الشاعر الذي يستعرض مزايا اختلافه لتدركها المعشوقة وتتغلغل في قلبه ودمه وضلوعه. وهذه القصيدة تردّنا إلى جذورها في مثيلاتها السابقة في تراثنا الشعريّ، ولاسيّما لدى «أبي فراس الحمداني».

أمّا الموضوع المركزيّ الذي هيمن على معظم القصائد فهو الغزل، وما تعالق به من شؤون الوجد والشوق والعتاب والاعتذار والصدّ والفراق، وقد بلغت قصائد هذه المعاني إحدى وثلاثين قصيدة. وسرعان ما يدرك من يمعن النظر فيها أنّها ترجمة شعريّة للبوّح «السيرذاتيّ» الذي افتتح به د. المسلم حكاية «رادا» التي حاول فيها بطل الحكاية التغلّب على سطوة الزمن، واستعادة شبابه من خلال الحب؛ ففي قلب الشاعر تتفتّح زهور الشباب، وإن شابّت ناصيته، لكنّ الأسى الذي غلّف قصائده العشقيّة يشي بأنّه أخفق في مواجهة الزمن بالحبّ. وفي هذه القصائد وصفٌ لتحوّلات حال العاشق؛ بدءاً بمرحلة الحلم الذي تستبدّ به الحبيبة، ويقين الشاعر بعقم الحلم وعجزه عن تحقيقه، مروراً بتحقيق الحب واكتواء العاشق بحريق اللوعة والشوق، وتجرّعه كؤوس الصدّ والحرمان والتمنّع والغياب، ومن ثمّ توّده بالمعشوقة، وذوبانه في نشوة حضورها، وانتهاءً بانقلابها على عاشقها، ووقوع الرحيل والانفصال الحتميّ.

ونستطيع القول إنّ هذه القصائد نتاج تضافر أربعة عناصر؛ أولها: تشرب الشاعر معاني الغزل منذ عهد

وتوحدَ بها حتى ملكته بكفّها، وصارت صوتاً وصارَ لها
الصدى، وبلغتِ استكانته لمعشوقته حدّاً دفعه إلى
الرضا بالموت إذا تمتّته له؛ لأنّ في موته تحقيقاً للذة
العاشق، وهذا معنى متداول ومشترك في الفروسيّة
في الشعيرين العربي والشعبي، وفيها يُعدُّ خضوعُ
العاشق لمعشوقته مزيّة تتّمم البطولة.
وإذن؛ فهل احتفى الشاعر حقاً بالزمن؟ وهل يحقّ
لنا ختاماً أن نجيب عن السؤال الذي عنوان به كتابه
وإحدى قصائده؟ فنقول: إنّ المعشوقة قد أخذتها
العزّة بالدلال فصمّت أذنيها عن نشيج عاشقها، وغلّقت
مسامَ الروح عنه؛ وهي حقاً: لا تعلم.

ما قبل الإسلام وصولاً إلى غزل الأندلسيّين، وثانيها:
موروثه الشعريّ الشعبيّ، وثالثها: علاقته الوجدانيّة
بالطبيعة التي تذكّرنا بالشعر الرومانتيكي، ورابعها:
تجاربه الذاتيّة التي يثبتها توهّج مشاعره الجليّ.
وتنبّدني آثار هذه العناصر في صورة العاشق الفارس
المتّسم بالعفة والنبيل، وهو يتكتم على حبّه ولا يعلنه،
ولا يبوّح باسم الحبيبة أو صفاتها، مكتفياً بابتسامتها
وبحرفي منها، وبالتغني بصوتها ونظراتها ولفطاتها،
وإصفاً انهماقه بعشقه، وانهماره على معشوقته
التي قدّمها على ذاته، وارتضى لنفسه الغياب
والعذاب واللوعة والوفاء لها مهما آثرت البعد،

